تاريخ الثَّقافة الإسلامية والتَّعليم في السودان الغربي

(أفريقيا الغربية)

[من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر]

د. أبو بكر إسماعيل محمد ميقا

مقدمة:

الثَّقافة والتَّعليم عند الشعوب الافريقية قبل الإسلام.

سادت المجتمعات الأفريقية نظم قبلية دقيقة اشتملت على ألوان من النشاط الثقافي والتعليمي، وكان التعليم في إطار عادات وتقاليد القبيلة أحد تلك النظم الدقيقة التي يراد بها صقل مواهب الطفل وإعداده للمستقبل وفق تقاليد القبيلة.

ولم تكن هناك مؤسسات تعليمية واضحة تقوم بدور التثقيف ونشر الوعي

الثقافي بين طبقات المجتمع إلا أنَّ وسائل التربية والتثقيف والتَّعليم ـ حسب المعلومات والروايات المتواترة ـ كانت تسير على مستويات ومراحل يمر بها الطفل منذ ولادته حتى يصل الأهلية الكاملة للمشاركة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والروحي للقبيلة .

وكانت حياة الفرد في طور التربية والتعليم تنقسم إلى مرحلتين : الطفولة ، والتعبئة . ففي مرحلة الطفولة تختلف طبيعة التربية والتعليم في المجتمع الأفريقي الجاهلي باختلاف مراحل السن وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمراحل نمو الطفل ، فكان الطفل في فترة الطفولة الأولى (من الولادة حتى السادسة) يخضع خضوعاً تاماً لرعاية أمه ، وتقتصر حياته على ألوان من اللعب والتغذية لتربية الجسد ، وخلق الروح الاجتماعية القبلية .

وفي فترة الطفولة الثانية (بين سن السادسة والعاشرة) يبدأ الطفل في تلقي بعض التعليمات الأخلاقية والاجتماعية وبعض التدريبات على الأعمال البسيطة والمساعدة التي يشارك بها في نطاق الأسرة أو المحلة مع استمراره في طور اللعب والتغذية ، أما بعد سن العاشرة حيث يدخل الطفل مرحلة الطفولة النهائية فإنه يعد إعداداً أكبر للمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي المراسيم الدينية والروحية عن طريق الاشتراك في الأعمال الرئيسة بقصد اكتساب بعض الخبرات والمعلومات عن الحياة الاقتصادية ، وحضور احتفالات القبيلة في مختلف المناسبات للتشبع بالقواعد الاجتماعية والمعتقدات التي تسير عليها القبيلة ، ويتم في هذه المرحلة نقل حرفة الآباء إلى أبنائهم .

وإذا بلغ بعض أطفال العشيرة أو المحلة سن الخامسة عشرة ، فإنَّ ذلك يعد حدثًا عظيماً في حياتهم حيث يدخلون مرحلة جديدة من الحياة ، فتقام لهم مراسيم خاصة لإدخالهم في مجموعة السن ، وتكوين الدفعة التي تمر باختبارات

عديدة، وتُتْرَك الدفعة لتكتسب بنفسها خبرات جديدة في الغابات والصيد والمراعي والمزارع، وتتحمل مسئوليات جسيمة، وتكلف بأعمال شاقة. وفي ذلك تعليم وتربية اجتماعية وأخلاقية وروحية وإعداد للمستقبل، واكتشاف المواهب والقدرات التي يمكن أن يفيد بها كل فرد مجتمعه، وتستمر فترة التعبئة هذه سنوات عديدة يعود بعدها الشاب ليدخل في المجتمع عضواً عاملاً متكامل الشخصية له قدرات معينة اكتسبها، وتخصص يسهم به في حياة المجتمع. وهذا النوع من التعليم التقليدي حسب النظم والعادات القبلية في أفريقيا الغربية قبل الإسلام لا تزال آثاره قائمة في كثير من القرى حتى عهد قريب⁽¹⁾. إلا أنهم وإن كانوا قد تمسكوا ببعض العادات الجاهلية التي توارثوها حتى بعد إسلامهم فإنهم قد تمثلوا الثقافة الإسلامية وهضموها وأسسوا عشرات المراكز الثقافية التي أثرت الحياة العلمية والفكرية في السودان الغربي. ولم تقلل تلك العادات المتوارثة من الأثر العميق الذي أحدثه الفكر السياسي الإسلامي في حياة السودان العلمية والسياسية، فقد قامت حكومات السودان بتعليم علوم الدين والدنيا فأنشأت مدارس ومساجد لتعليم أبناء المسلمين، وسيأتي توضيح ذلك كله.

التعليم الإسلامي والثقافة الإسلامية بعد انتشار الإسلام بين القبائل الأفريقية

الإسلام دين ثقافة وحضارة إنسانية دينية شاملة، وجميع تشريعاته وعلومه وأخلاقياته تعبير عن روحه لذلك غيَّر الأفريقيين حين اعتنقوه تغييراً جذريًّا شاملاً في جميع المجالات، سواء في مجال معتقداتهم أو السلوك أو في مجالات حياتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد وفدت الثقافة الإسلامية على السودان الغربي من المشرق الإسلامي وخاصة مصر، وشمال أفريقيا والمغرب الأقصى واشتهرت المدن في السودان الغربي كمراكز ثقافية مهمة أمَّها طلاب العلم والعلماء على السواء منذ وقت مبكر(٢).

ويرجع أول اتصال ثقافي إسلامي بين السودان الغربي وبخاصة (غانا) والعالم الإسلامي إلى ما ذكره ابن خلدون في العبر وغيره من أن موسى بن نصير ولى على طنجة بالمغرب الأقصى (طارق بن زياد) وأنزل معه سبعة وعشرين ألفًا من العرب واثنى عشر ألفًا من البربر، وأمرهم أن يعلموا البربر والملثمين والسودانيين المجاورين لهم القرآن والفقه وذلك في الربع الأخير من القرن الأول الهجري.(٣)

وأسلم الملثمون، واتحدوا تحت لواء الإسلام وأرسلوا الدعاة إلى بلاد السودان،(٤) ينشرون الإسلام وثقافته، وهاجر كثير من العلماء والفقهاء إلى مملكة غانا الوثنية السودانية ووجدوا فيها الرعاية والتشجيع لدى ملوكها، وكانت ممتلكاتها الشمالية تقع قريبا من جبال درن وتختلط بديار الملثمين.(٥)

ونتج عن ذلك قيام المراكز الثقافية الإسلامية في السودان التي حققت نجاحًا مهمًا في ربط الفكر الإسلامي العربي بالحضارات الأفريقية وقد ظهر تأثيره في التبادل العلمي والثقافي دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من قبل الأفريقيين الذين أصبح ما تعلموه جزءا من كيانهم الخاص.

وقد حرص سلاطين وملوك السودان الغربي على إرساء قواعد نهضة ثقافية إسلامية مزدهرة في بلادهم وذلك بإيفاد طلاب العلم إلى مصر والمغرب والحجاز للتعمق في دراسة العلوم والثقافة ثم يعودون إلى بلادهم. وقد تألق نجم كثيرين من أولئك الطلاب في تلك البلاد فاشتهر في مصر الشيخ العالم الفقيه الصالح أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي وفد على مصر وتعلم في الجامع

الأزهر، ونبغ بين علمائه واشتهر بينهم بالعلم والصلاح والتقوى وكان معاصرًا للخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) الذي قربه وأدناه منه، وأغدق عليه، وظل في القاهرة ينشر علمه ومعارفه حتى وافته المنية، فدفن في حي من أحيائها نسب إليه، وهو حي بولاق الدكرور المحرف عن التكرور،(٦) وقد شيد المصريون على قبره قبة وبجانبها مسجدًا جامعًا عرف بجامع التكروري، وجدد هذا المسجد ووسع على عهد المماليك البحرية عام ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢م(٧).

والشيخ فاتح بن عثمان التكروري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ـ ١٢٩٣م الذي لازم أحد مساجد دمياط للتعليم والعبادة حتى عرف باسمه (جامع فتح)(٨).

والشيخ صبيح بن عبد الله التكروري الكلوتاتي المتوفى سنة ٧٣١هـ الذي سطع نجمه وشاع علمه، بعد أن تتلمذ على علماء مصر، وبرع في علم الحديث، ثم رحل إلى دمشق حيث أخذ يُدرِّس الحديث في مسجدها الجامع.(٩)

والشيخ راشد بن عبد الله التكروري المتوفى سنة ٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٤م، الذي كان من أعيان العلماء. وله جامع عرف بجامع راشد، عند بركة الحبش(١٠).

والشيخ عبد الملك بن علي الكانمي الذي اشتغل بالتعليم في مصر سنة ٧٢٠هـ ـ ١٣١٨م(١١).

والشيخ محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن العباس الحراز العز التكروري المعروف بالعز التكروري أو (العز الغاني) المتوفى سنة ٨٥٧هـ(١٢).

والشيخ محمد الكشناوي شيخ حسن الجبرتي الكبير، وتوفى الكشناوي بمصر سنة ١١٥٤ هـ بمنزل تلميذه الجبرتي الكبير الذي جعله وصيا على تركته، وكتبه، ودفن الكشناوي ببستان العلماء بالمجاورين، ويقال إن علماء الحرمين

أثناء إقامته فيهما قد أقروا له بالعلم والفضل، كما أقر له علماء مصر بذلك(١٣).

ومن العلماء السودانيين الذين رحلوا في طلب العلم إلى مصر وفاس وتلمسان والقيروان والحرمين وغيرها من المراكز الإسلامية في المغرب والمشرق ثم عادوا إلى بلادهم بعد أن نهلوا من العلوم والمعارف المزدهرة في تلك البلاد:

١ - الشيخ عثمان فقيه أهل غانة وكبيرهم علمًا ودينًا وشهرة، قدم مصر سنة ٦٩٩هـ وذكر ابن خلدون في العبر أنه قابل بمصر سنة ٦٩٩ هـ فقيه أهل غانة وكبيرهم علمًا ودينًا وشهرة(١٤).

٢ - والفقيه القاضي كاتب منسى موسى الذي رحل إلى مدينة فاس لطلب العلم بأمر من سلطان مالي الملك العادل منسى موسى سنة ٧١٢هـ - ٧٣٨هـ، الموافق ١٣١٢م - ١٣٣٧م وقد عاد إلى مالي ومعه أحد فقهاء المغرب: عبد الله البلبالي. وقد ذكر السعدي أن الفقيه القاضي كاتب موسى هذا مكث في إمامة المسجد الجامع الكبير في مدينة تمبكتو أربعين سنة ولم يستتب بعد عودته من المغرب في الصلاة ولو مرة واحدة لصحة بدنه(١٥).

٣ - أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد أقيت جد الشيخ أحمد بابا رحل إلى المشرق سنة ٨٩٠هـ - ١٤٨٥م، وحج، ولقي جماعة من العلماء منهم الشيخ جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الوقاد الأزهري إمام النحاة واللقانيان شمس الدين بن حسن بن علي بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٥هـ، وغيرهم. أخذ عنهم العلم واستفاد منهم ثم رجع إلى بلاد السودان فدرس العلم، وانتفع به خلق كثير وطلب منه الإمامة فأبى وتوفي سنة ٩٤٣هـ(١٦). وقيل إنه خلف وراءه سبعمائة مجلد(١٧).

٤ - محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي قاضي تمبكت. قال عنه أحمد باب والسعدي: عالم التكرور وصالحها

ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع. كان من خيار عباد الله الصالحين. . . تولى القضاء عام ٩٠٤ هـ في عهد أسكيا محمد الملك العادل ملك سنغاي؛ فسدد في الأمور وشدد مع ملازمة التدريس، وانتفع به بشر كثير وأحيا العلم بتلك البلاد واشتهر، ورحل إلى المشرق وحج عام ٩١٥هـ ولقي علماء عصره بمصر والحجاز كالشيخ / إبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والشيخ القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى، واللقانيين وغيرهم من كبار أهل العلم وأئمته في ذلك العصر. ثم عاد إلى بلده وقد استفاد، ولازم الإفادة وإنفاذ الحق حتى توفى عام ٩٥٥هـ(١٨). وقيل إنه لازم التدريس خمسين سنة.

٥ ـ الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي رحل إلى المغرب لطلب العلم وتتلمذ على ابن غازي وغيره من علماء المغرب ثم رجع إلى السودان وزار بلاد كنو وكشنا وأكدس وغيرها، واستفاد منه أهلها فذاع صيته وتوافد عليه الطلاب من كل مكان من بلاد السودان، وانتشر علمه واشتهر بقوة الحافظة، ثم دخل مدينة تمبكت ودرس هناك ونشر علمه فيها، ثم رجع إلى المغرب فدرس بمراكش ثم آب إلى بلاده تمبكت وتوفي بها سنة ٩٤٠هـ(١٩).

٦ ـ محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي. قال عنه السعدي: كان فقيهًا عالمًا فهامًا محدثًا متفننًا محصلاً جيد الخط. . . رحل إلى المشرق صحبه الفقيه محمد بن عمر أقيت، وتتلمذ في مصر على علماء أجلاء كشيخ الإسلام زكريا والبرهانين: القلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي، وجماعة، فأخذ عنهم علم الحديث، وسمع وروى، وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون، وصار من المحدثين، وحضر درس الأخوين اللقانيين

وتصاحب مع أحمد بن محمد وعبد الحق السنباطي شيخه وأجازه من مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم ثم رجع إلى بلاد السودان، فتوطن كشنا فأكرمه سلطانها وولاه قضاءها، وتوفي سنة ٩٣٦هـ، وله تقييد نافع على مختصر خليل(٢٠).

٧ ـ أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التمبكتي وصفه السعدي بالزهد والورع والتقى، سافر إلى المشرق فحج وجاور المدينة وتتلمذ على شيوخها ثم رجع إلى بلاده السودان فنفع الله به الخلق، ونشر علمه، ثم عاد إلى المدينة المنورة حتى توفي فيها سنة ٩٩١ هـ، وكانت ولادته عام ٩٣٢هـ(٢١).

٨ ـ أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت وكان معاصرًا للسلطان الأعظم العادل أسكيا داود وقال عنه السعدي: كان ذكيًا دراكًا متفننًا محدثًا أصوليًا بيانيًا منطقيًا... وكان رقيق القلب، وكانت له مكانة عند الملوك وكافة الناس،... وكان جماعًا للكتب النفيسة وافرًا لخزانة محتوية على كل نفيس سموحًا بإعارتها، وكان يعيرها لكل الناس. رحل إلى المشرق الإسلامي سنة ٩٥٦هـ فحج وزار وتتلمذ على كبار علماء عصره في مصر والحرمين، وتدارس معهم كالناصرِ اللقَّاني، والشريف يوسف تلميذ السيوطي وجمال الدين بن الشيخ زكريا، والأجهوري والتاجوري. ومن الحرمين أخذ عن أمين الدين الميموني والملائي، وابن حجر المكي، وعبد العزيز اللمطي، وعبد المعطى السخاوي، وعبد القادر الفاكهاني وغيرهم، وانتفع بهم، ولازم أبا المكارم محمد البكري، ثم عاد إلى بلاده فدرس وأسمع عنه الصحيحين نيفا وعشرين سنة وشرح مخمسات العشرينيات الفزارية في

مدح الرسول ومنظومة المغيلي في المنطق، وكان عظيم القدر والجاه عند السلطان أسكيا داود سلطان مملكة سنغاي، وكان يزوره في داره، ولما مرض في غاو كان أسكيا داود يأتيه بالليل ويسمر عنده حتى برئ، توفي عام ٩٩١هـ(٢٢).

٩ - محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي المعروف ببغيع. وصفه أحمد بابا والسعدي بقولهما: الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك المفتي من خيار عباد الله الصالحين والعلماء. رحل مع أخيه الفقيه أحمد إلى بلاد المشرق الإسلامي فلقيا بمصر الناصر اللقاني والتاجوري والزين البحيري والشريف يوسف، والبرهموشي الحنفي والشيخ الإمام محمد البكري وغيرهم، فاستفادا منهم فحصلا هناك ما حصَّلا ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج إلى بلاد السودان فاستوطنا تمبكت فأشاعا العلم في كل مكان. ولازم محمد هذا العلم وتعليمه ودرسه وصرف أكثر وقته في نشر العلم وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة للناس بحيث لا يفتش عنها بعد ذلك. قال أحمد بابا: قد جئته يومًا أطلب منه كتب نحو ففتش في داره فأعطاني كل ما ظفر به منها. وقد توافد عليه طلبة العلم من كل مكان. وله تعليقات على بعض أمهات كتب المالكية ونبه فيها على هفوات لشراح خليل وغيره. توفي رحمه الله في مدينة تمبكت سنة ١٠٠٢ هـ وكانت ولادته سنة ٩٣٠هـ، ويعتبر محمد بغيع من شيوخ مدرسة تمبكت الذين لهم دور عظيم في انتعاش الحركة العلمية ونشر الثقافة الإسلامية في ربوع السودان(٢٣).

وغير هؤلاء كثيرون من علماء السودان ممن رحلوا إلى المغرب والمشرق: (مصر والحجاز) وتتلمذوا على أئمة العلم في عصرهم في تلك البلاد ثم عادوا إلى بلادهم وعملوا على نشر الثقافة الإسلامية في بلاد السودان وتعزيز المراكز

الإسلامية التي أقامها ملوك وسلاطين السودان.

تأسيس رواق خاص بالأزهر وإنشاء مدرسة خاصة بالفسطاط لطلبة العلم الوافدين من السودان الغربي لطلبة العلم

عندما تزايد عدد الوافدين إلى مصر من أفريقية الغربية لطلب العلم وكثر عدد المقيمين بها من العلماء والطلبة أسس لهم رواق خاص بالأزهر(٢٤)، سنة ١٢٤٠م وبالإضافة إلى ذلك فقد عهد بعض سلاطين السودان الغربي إلى الفقيه المالكي المصري: علم الدين، ابن رشيق ببناء مدرسة لطلاب السودان يدرسون فيها الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وأعطوه قدرًا من المال ليقوم ببنائها، فبناها لهم بخط حمام الريش بالقاهرة سنة ٦٤٠هـ وكان بناؤها في أواخر الدولة الأيوبية. وقام بمهمة الإنفاق عليها طائفة من أهل التكرور بالسودان الغربي سنويا، ونالت المدرسة شهرة كبيرة في غربي أفريقيا(٢٥).

ويظهر مما تقدم أن بلوغ العلاقات التعليمية الثقافية ذروتها بين مصر والسودان الغربي كان في عهد دولة المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٢هـ ـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م).

وهو العهد الذهبي للثقافة الإسلامية في غربي أفريقية والعهد الذي ازدهر فيه التعليم في السودان الغربي وبلغ الإسلام فيه ذروته في الانتشار والقوة. وقام ملوك السودان برحلات متتالية إلى الحج عن طريق مصر.

استقدام ملوك السودان الغربي العلماء من الحجاز ومصر والمغرب لتعزيز مراكز العلم والثقافة الإسلامية في مدن السودان

لم يكن حرص ملوك وسلاطين السودان على نشر العلم و إرساء قواعد نهضة ثقافية في بلادهم مقصورًا على إيفاد طلاب العلم إلى المراكز الإسلامية في العالم

الإسلامي في ذلك الوقت، بل اهتموا اهتمامًا شديدًا باستقدام كثير من العلماء والفقهاء من مواطن العلم في الحجاز ومصر والمغرب، فاهتم سلاطين مالي بنشر العلوم والثقافة الإسلامية في مالي عن طريق استقدام أئمة العلم من الأقطار الإسلامية وقد عرف عن هؤلاء السلاطين أنهم استقدموا عددًا كبيرًا من العلماء إلى بلادهم ولا سيما من مصر والحجاز والمغرب، والأندلس فامتلأت بلادهم بالعلماء من السود والبيض على السواء. فاستقدم السلطان منسي موسى الذي تولى عرش مالي سنة ١٣٠٧م - ١٣٣٢م وقام برحلة إلى الحج عام ١٣٢٤م الموافق عام ٧٢٤هـ(٢٦)، فأحضر معه علماء الحجاز:

١ - أبا إسحاق إبراهيم الساحلي شاعر الأندلس المهندس المعماري المتوفى في تمبكت عام ١٣٤٦م، وكان السلطان موسى قد تعرف على أبي اسحاق بمكة خلال حجه ودعاه إلى بلاده، وصحبه معه في عودته، وهو الذي أدخل هندسة البناء وزخرفته في بلاد السودان. وبالإضافة إلى كونه شاعرًا ومهندسًا معماريًّا فهو عالم جليل وقد بني لمنسى موسى مسجدَ مدينة غاو على إثر عودته من الحج عام ١٣٢٥م بناه له من الطوب المحروق وجعل مِئْذنته هرمية الشكل وهذا أول بناء من هذا الطراز في بلاد السودان. ولا يزال هذا المسجد قائما بشكله الهرمي إلى يومنا هذا ويصلي فيه الناس. كما بنى له أيضا مسجد الجامع الكبير في مدينة تمبكت(٢٧).

٢ - القاضي أبا العباس الدكالي(٢٨).

٣ - القاضي عبد الرحمن التميمي: قدم مع السلطان موسى إلى مالي وسكن مدينة تمبكت فوجدها حافلة بالفقهاء السودانيين، فوجد أنهم قد تفوقوا عليه في الفقه فسافر إلى فاس وتفقه على الفقهاء المالكيين ثم عاد إلى تمبكت(٢٩).

واستقدم من المغرب : الفقيه عبد الله البلبالي الذي قدم مع كاتب السلطان منسى موسى ، الذي كان من علماء السودان الذين رحلوا إلى مدينة فاس بالمغرب لطلب العلم بأمر من السلطان وكان البلبالي أول من تولى إمامة المسجد الجامع بتمبكت من البيض، وكان أئمته قبله من السودان، وآخر الأئمة منهم الفقيه كاتب موسى المذكور(٣٠) . وقد حرص السلطان منسى موسى على استقدام كثير من العلماء والفقهاء وخاصة من المغرب ومصر، وكانت في مصر جالية كبيرة من العلماء والفقهاء وطلاب العلم منذ العهد الفاطمي من بلاد السودان، وأصبحوا جزءًا هامًا من المجتمع المصري وعرف حي بولاق «بيولاق التكرور» وكانت لتلك الجالية واضحة في الجانب العلمي والثقافي والديني تركت بصمات مكانة في حياة الشعب المصري، وكانت الصلات التعليمية والثقافية قوية جدا بين السودان الغربي ومصر في عهد المماليك(٣١) . وأقام عدد كبير من العلماء والفقهاء والتجار والأطباء المصريين في مالي حتى أن الطبيب الذي عالج ابن بطوطة وهو في مالي عام ٧٥٣هـ-١٣٥٢م كان مصريا، وشاهد ابن بطوطة في تمبكت قبر أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية وهو سراج الدين بن الكويك وذكر أن في مدينة مالي العاصمة محلة خاصة للبيض من الفقهاء والعلماء والتجار من المصريين وغيرهم، وأنه اكترى دارًا إزاء دار الفقيه محمد بن الفقيه الجزولي بمحلة البيض(٣٢) . ولم يكتف السلطان منسي موسى بن أبي بكر باستقدام العلماء والفقهاء من الحجاز ومصر والمغرب والأندلس، بل عمل على شراء عدد كبير من الكتب الدينية في مذهب الإمام مالك وغيره والكتب اللغوية والأدبية والعلمية والثقافية من الحجاز ومصر والمغرب، فاشتهرت المدن في إمبراطورية مالي الإسلامية في عهده بالعلم وأصبحت مركز إشعاع ثقافي يؤمه طلبة العلم والعلماء من كل مكان : كمدينة تمبكت ومالي وغاو، وجنى وايوالاتن

وأودغست ، فازدهر التعليم والثقافة في مساجدها ومعاهدها وغدت محجة العلماء والفقهاء من بلدان العالم الإسلامي ، فقد كانت آمنة رخية سخية بالخيرات تضفي على العلماء والفقهاء ما يريدونه من رفاهية وسكينة وأمن وسلام ، وانقطاع للدروس والتدريس ، وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة والكتابة في أفريقيا الغربية كلها ونظر إليها السودانيون بعين الاحترام والإجلال والتقديس باعتبارها لغة القرآن والدين والعلم(٣٣) .

عندما توفي منسي موسى عام ١٣٣٣م ترك دولة اسلامية مهيبة الجانب مزدهرة بالعلم والعلماء والفقهاء .

ولم يكن من أتى بعد منسى موسى أقل حرصا في نشر العلم والثقافة الإسلامية في ربوع الامبراطورية الإسلامية وتشييد المساجد والمدارس وجلب الفقهاء إلى مالي . وقد ذكر ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار أن منسي سليمان الذي تولى عرش مالي سنة ١٣٥٢م الموافق ٧٥٣هـ : ـ (قد بنى في أرجاء إمبراطورية مالي الإسلامية : المساجد والجوامع والمآذن (المنارات) ، وأقام به الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك وبقي بها سلطان المسلمين وتفقه في الدين) (٣٤) وقال في العبر : ودام ملكه أربعا وعشرين سنة(٣٥) .

وقد وصف ابن بطوطة الذي زار مالي في عهد منسى سليمان سنة ٧٥٣ ـ ٧٥٤هـ مدى انتشار العلم والثقافة الإسلامية والعدل والأمن في كل مكان من السودان الغربي ، ودهش لشدة حرص السودانيين على حفظ القرآن وتعليمه والتفقه في الدين ، وحفظهم الأمانات وإقبالهم على الصلاة وتعمير المساجد بالمصلين . وازدحامهم عليها فقال : (فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحدًا في شيء منه .

ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقًا ولا غاصبًا. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه، حتى يذهب إلى المسجد...

ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم. وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن)(٣٦).

كما وصف ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ ما عليه السلطان موسى من الدين والاستقامة هو ومن معه من السودانيين أثناء مروره بمصر إلى الحج سنة ٧٢٤هـ ودهش ابن أمير حاجب من تدينه وكثرة عبادته وصلاحه. وإجادته للغة العربية مما يدل على ازدهار الثقافة الإسلامية وسائر العلوم الإسلامية في إمبراطورية مالي الإسلامية مع شدة تمسك السودانيين بالدين وفهمهم لحقيقة الإسلام. قال ابن فضل الله: قال ابن أمير حاجب - وهو يصف تدين السلطان موسى ومن معه: (ولقد كان هذا السلطان مدة مقامه

بمصر قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده، على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، وكان كريماً جوادًا كثير الصدقة والبر. . .) قال ابن فضل الله: قلت: (وقد كان بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حديث وصول هذا السلطان موسى حاجًّا ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم، فسألت الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكي. . فذكر ما كان عليه هذا السلطان من سعة الحال والمروءة والديانة. . .) وذكرالأمير أنه في أثناء مقابلته: كان لا يحدثه إلا بترجمان مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي. .(٣٧) وقال في العبر: (كان منسي موسى رجلاً صالحًا وملكًا عظيماً له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية(٣٨)).

ويتضح لنا مما تقدم عرضه: أن عصر السلطان منسى موسى وعصر أخيه السلطان منسي سليمان كان عصرًا ذهبيًا، وفتحًا مبينًا، في ميدان العلم والتعليم وانتشار الثقافة الإسلامية في مملكة مالي المترامية الأطراف، فقد عمل موسى على إرسال بعثات ثقافية إلى مدن المغرب لمتابعة دراساتهم. واشتهر في عهده الفقيه المشهور كاتبه الذي أرسله إلى المغرب وتابع تحصيله العلمي في مدينة فاس. كما تقدم، كما أن هذا السلطان قد اشترى أثناء حجه كثيرا من الكتب العلمية من الحجاز (مكة والمدينة) والقاهرة. وأنشأ في عاصمته عند عودته من الحج عام ١٣٢٥م مدرسة كبيرة لتعليم القرآن واللغة العربية والعلوم الأخرى. وذكر ابن بطوطة أن التعليم في عهد منسي سليمان في تلك المدرسة كان إجباريا إذ كان الطالب يقيد بالحديد أو الحبال حتى يحفظ القرآن وذكر العمري والقلقشندي أن السلطان العادل منسي موسى سلطان مالي كان يتقن العربية قراءة وكتابة

وحديثا ، وكـان أخوه السلطان منسي سليمان مثله . وقـد عمل هذان على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة في التعليم والدواوين والمكاتبات .

وقد أشار ابن بطوطة إلى ارتفاع مستوى الثقـافة الإسلامية في عهـد السلطان منسي سليمان عند السـودانيين ، فقد ذكـر أنه وجد كتـاب المدهش لابن الجوزي عند أحد أمراء بلدة واقعة بين تمبكت ومدينة غاو أثناء سفره من تمبكت إلى غاو، وجعل يقرأ فيـه وذكر أن هـذا الأمير كان مثقفًا بثقـافة إسلاميـة وأنه كـان يعرف اللغة العربية(٣٩) . وكان الخط السائد في مملكة مالي الإسلامية في ذلك العصر هو الخط الفاسي المغربي(٤٠) . والخلاصـة أن القـرن الرابع عشر الميـلادي هـو عصر الازدهار العلمي والثقافي في مالي ، وقد سجل نهضة علميـة راقية وثقافة إسلامية مزدهـرة بالنسبـة لعصر ملوك مـالي الذين كـانوا قبل عصر منسي مـوسى ومنسي سليمان .

هذا فيما يتعلق بوضع الثقافة الإسلامية في امبراطورية مالي الإسلامية وحرص ملوكها على رعاية العلم والعلماء وطلاب العلـم وتدعيم المراكز الثقافية والعلمية باستقدام العلماء والفقهاء من العالم الإسلامي .

ازدهار الثقافة الإسلامية وانتشارها في عهد امبراطورية سنغاي التي خلفت إمبراطورية مالي

يعتبر عهد حكم آل أسكيا امبراطورية سنغاي الإسلامية الذي استمر قرنا من الزمـن أزهى عصور انتشـار الثقافة العربيـة الإسلاميـة في السودان الغـربي كله (أفريقيا الغـربية) وفي هذا العصر اشتهرت المراكز العلمية والثقـافية في السودان الغربي وظهرت قوية وتـوافد عليها العلماء وطلاب العلم من كل فج عميق . كما

ظهرت مؤلفات كبار العلماء في العالم الإسلامي وأتت الثقافة الإسلامية أكلها ناضجة(٤١).

كما كان عهدهم يمثل المرحلة التي بلغ فيها انتشار الإسلام واستقراره في أفريقيا الغربية كلها عصره الذهبي بصفة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنطقة قبلهم ولا بعدهم، كما بلغ ازدهار التبادل العلمي والثقافي والتجاري في هذا العهد بين سكان السودان الغربي والعالم الإسلامي أوجه(٤٢). ولكن الثقافة الإسلامية وسائر العلوم ازدهرت أكثر في عهد الملك العادل الحاج أسكيا محمد ابن أبي بكر، وابنه داود أسكيا. وكان أسكيا محمد الذي حكم سنغاي من عام ١٤٩٣م إلى عام ١٥٢٨م سهل الجانب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين والعلم مكرما لهم غاية الإكرام، فقد أحب العلماء وطلاب العلم ورعاهم وأغدق عليهم، وجدد الدين، وأقام القضاء والأئمة . . . ونصب في (تمبكت) قاضيًا، وفي بلدة (جنى) قاضيًا، وفي كل بلد يستحق القاضي من بلاده قاضيًا، من كنت إلى سبردك(٤٣)، وقال القاضي محمود كعت: وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل، وكان من عقلاء الناس ودهاتهم. . . (٤٤).

وكان العلماء في عهده في حركة دائبة بين المغرب والمراكز الثقافية في السودان الغربي كله بتشجيع منه وعمل على استقدام عدد كبير من العلماء من المغرب ومصر والحجاز، وفي أثناء حجه عام ٨٨٩ هـ استقدم بعض العلماء منهم الشريف أحمد الصقلي ومن معه، وكاتبه علي بن عبد الله. كما اشترى في مكة والمدينة جنانًا وبيوتًا وحبسها أوقافًا يصرف ريعها على الفقراء والمساكين والعلماء

وطلبة العلم الذين انقطعوا للدراسة والعبادة من الوافدين من السودان الغربي(٤٥) (غرب أفريقيا).

ولا توجد دولة إسلامية في تاريخ السودان كله وصلت إلى قمة الازدهار الثقافي والعلمي ونمو الحركة الفكرية وتوسيع حركة المد الإسلامي مثلما بلغت سنغاي في عهد محمد أسكيا وأسكيا داود، وخلفائهما من ملوك سنغاي.

وكان أسكيا داود الذي حكم سنغاي ثلاثة وثلاثين عامًا من ١٥٤٩ - ١٥٨٣م(٤٦)، فقيهًا عالمًا حافظًا كتاب الله وسلطانًا مهيبًا، وهو أول من اتخذ خزائن للكتب - أي المكتبات العامة - وله كُتَّابٌ ينسخون له كتبًا. وقد وصفه القاضي محمود في تاريخ الفتاش بذلك حيث قال: (وكان أسكيا داود سلطانا مهيبًا فصيحًا خليقًا للرئاسة كريمًا جوادًا) . . . وهو أول من اتخذ خزائن المال حتى خزائن الكتب وله نساخ ينسخون له كتبا، وربما يهادي به العلماء . . . إنه حافظ للقرآن، قرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها، ويأتي الشيخ بعد الزوال . .(٤٧).

ولم يحصل تقصير من سلاطين مملكة سنغاي الذين أتوا بعد أسكيا داود في الاهتمام باستقدام العلماء ونشر العلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله. وعندما زار الرحالة المغربي الحسن الوزان مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان وجدها كعبة الثقافة الإسلامية والعلوم، ووصف النهضة العلمية والثقافية التي كانت تزخر بها واهتمام ملوك سنغاي بنشر العلوم والثقافة في كل مكان، وذكر أن تمبكت كانت حافلة بالعلماء والفقهاء والأئمة وأنهم جميعا يأخذون مرتبات طيبة من الملك ويعاملون باحترام وتقدير عظيمين من قبل الحكومة والشعب. وأن تجارة الكتب تفوق كل تجارة في ربحها، ولا توجد سلعة تضاهيها في الربح، وسواء كان الكتاب منسوخًا في نفس البلاد أو مستوردًا من

البلاد الإسلامية(٤٨).

قلت وهذا يدل على أن بلاد السودان في عهد حكم آل أسكيا قد وصلت إلى مستوىً رفيع وعالٍ جدا في ميدان العلم والثقافة .

وقد عرفت بلاد السودان تحت ظل حكم سنغاي في ذلك العهد كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، سواء عن طريق الكتب التي كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة، أو عن طريق الفقهاء الذين يأتون للدعوة والتعليم، أو عن طريق الفقهاء التجار الذين كانوا يذهبون إلى بلاد السودان للتجارة، وفي الوقت نفسه يقومون بالتدريس والتعليم(٤٩). أو عن طريق الطلاب السودانيين الذين كانوا يقومون بحركة دائبة باتجاه شمال أفريقيا ومصر والحجاز للدراسة ثم يعودون بعد إنهاء دراستهم فينشرون ما تلقوه من معارف في بلدانهم. كما أنه تم نشر الكثير في هذا الميدان عن طريق العلماء والفقهاء الذين كان ملوك آل أسكيا يعملون على جلبهم من مناطق العالم الإسلامي المختلفة للتدريس، ويبذلون لهم بسخاء الكثير من المساعدات المادية والمعنوية مما حمل الكثير منهم على الإقامة والاستيطان في مراكز العلم والثقافة الإسلامية ببلاد السودان(٥٠). ولقد توافد في هذا العهد على بلاد السودان جم غفير من العلماء من المغرب كما استقبلت جامعة القرويين بفاس العشرات من الطلبة والعلماء من السودان، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفا من كتب العلم في مختلف الفنون، وقد بارك ملوك آل أسكيا الحركة العلمية والثقافية في بلادهم بتشجيع العلماء والفقهاء واحترامهم وأسقطوا عنهم جميع وظائف السلطنة وغراماتها ولا يطالب أحدهم بشيء من ذلك، ومنعوا عنهم الظلم ولا يحق لأي حاكم من حكام الأقاليم والمدن النظر في أي شكوى ضد عالم أو فقيه بل ذلك حق للأسكيا

وحده دون سائر حكام المقاطعات في مملكة سنغاي(٥١).

وقد ساعدت إمكانات البلاد الهائلة وظروف التجارة المربحة مع تضافر جهود ملوك آل أسكيا المباركة في إشاعة المعرفة في بلادهم. وما كان للطلبة السودانيين من همة عالية وتجلد في سبيل العلم وتحصيله من مراكزه الأصلية. كل ذلك ساعد على جلب عدد كبير من ذوي العلم والثقافة إلى بلاد السودان الغربي في هذا العهد. وكان من أبرز العلماء الذين استقدموا من المغرب إلى مملكة سنغاي:

محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي جاب بلاد السودان في عهد الحاج محمد أسكيا سلطان سنغاي واتخذه مستشارا له ووجه إليه عدة أسئلة(٥٢).

محمد بن عيسى بن علي التلمساني: اشتهر بوضع كتاب حلل فيه شرب الخمر باعتبار أنها تتخلل بالخل وهو حلال، ويقال أنه عرض كتابه ذاك على بعض شيوخه فأعجب بطريقة عرضه وتحليله(٥٣). قلت: والخمر نجس لا تحل بالإجماع إلا إذا انقلبت الخمرة خلا بنفسها بدون فعل أحد فتحل حينئذ باعتبارها خلا وليس خمرا(٥٤).

صالح بن محمد أندي عمر المشهور بالمعمري والمعروف بصالح تكن كان من أهل العلم والفضل قال عنه السعدي: إنه (محترم عند السلاطين يشفع للمساكين عندهم ولا يردون شفاعته على كل حال. ألف شرحا على مختصر الشيخ خليل(٥٥). وقال صاحب فتح الشكور إنه لم يقف على تاريخ وفاته(٥٦).

أبو القاسم التواتي: جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، وسكن بجوار المسجد الجامع وكان يستقبل في داره طلبة العلم وكان السلطان أسكيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وأنشأ مقبرة تمبكت الكبرى التي حبس عليها الأسكيا صندوقا فيه ستون جزءا من المصحف وجعله في المسجد الجامع الكبير لطلبة العلم، وعندما توفي أبو القاسم سنة ١٥١٦م في تمبكت كان يوجد فيها

خمسون عالما من علماء توات(٥٧).

عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني، ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط، وهو شيخ المنجور أشهر علماء المغرب. قال أحمد بابا في النيل: قال المنجور في فهرسته: شيخنا الفقيه الأستاذ المحدث المسند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة ابن غازي والشيخ زروق، وأدرك أبا الفرج الطلنجي... وشرق سنة تسع وتسعمائة فأخذ علم الحديث بمصر عن أصحاب ابن حجر كالقلقشندي وغيره وضبط فحصل له رواية واسعة لم يحصلها من الفاسيين، ثم آب لبلاد السودان ودخل كانو وغيرها فعظموه وأعطوه مالا جزيلا ثم رجع إلى فاس سنة ٩٢٤هـ فأكب على رواية الحديث وتدريسه وكان يدرس الموطأ والكتب الستة والتفسير... حتى توفي سنة ٩٥٦هـ(٥٨). وغير هؤلاء من العلماء الذين استقدموا من بلاد المغرب والأندلس كثيرون، وسيأتي ذكر أسماء بعضهم عند الحديث عن أشهر العلماء في المراكز الإسلامية بتمبكت وغاو وجنى وغيرها.

ويظهر أن إمبراطورية سنغاي في عهد حكم آل أسكيا مرت بطورين في ميدان التطور العلمي والثقافي: الطور الأول:

طور الأخذ في ميدان المعارف المختلفة وذلك باستقدام العلماء وتشجيعهم على بذل العلم وتشجيع الطلاب السودانيين على الرحلة إلى شمال أفريقيا ومصر والحجاز لطلب العلم والوقوف على مراكز العلم وما ألفه العلماء في تلك المراكز. وهذا الطور يبدأ من عهد محمد أسكيا الأول ١٤٩٣م-١٥٢٨م، وعهد ابنه أسكيا موسى ١٥٢٨م-١٥٣١م(٥٩).

الطور الثاني: هو طور الإنتاج والعطاء والتبادل الثقافي بين السنغاي والعالم الخارجي، وهذا الطور: يبدأ من سنة ١٥٣٠م وبلغ ذروته خلال الفترة الممتدة

بين عهد أسكيا إسماعيل سنة ١٥٣٧م ـ ١٥٣٩م، حتى نهاية أيام أسكيا داود سنة ١٥٨٣م، واستمر حتى بداية العهد المغربي سنة ١٥٩١م، ففي خلال هذه الفترة ازدهر العلم واشتهر كثير من علماء السودان الغربي بالعلم، وألف كثير منهم عدة شروح في الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ، كما قام بعض أهل سنغاي من العلماء في هذا العهد بالتدريس في جامعة الأزهر، كان من أشهرهم الفقيه المفسر المعتز بن عبد الرحيم، وصبح بن عبد الله الذي اشتغل بالحديث وتدريسه في دمشق بعد الأزهر(٦٠). وقد ظهر دور علماء السودان الغربي في الإنتاج العلمي أثناء عهد الأخذ والعطاء تحت رعاية ملوك آل أسكيا، وكانت جميع أنواع العلوم تدرس وتستوعب وتناقش باللغة العربية، وهي لغة الكتابة الرسمية والثقافة على حد سواء(٦١). وهي اللغة التي يدرس بها الطلاب العلوم المختلفة، وهكذا أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين سكان سنغاي وهي لغة الإدارة والمراسلات والمعاملات والمراسيم والدواوين. وبذلك طبعت البلاد بطابع عربي إسلامي(٦٢). وقد تمسك العلماء والفقهاء في هذا العهد بالقيم الأخلاقية الشرعية احتراما للعلم إلى أبعد الحدود، فعزفوا عن مصاحبة السلاطين، وعن تولي الوظائف الرسمية في الدولة، واكتفوا بالتمتع بالزعامة الدينية على أفراد المجتمع السوداني بأسره، وكان سلاطين الدولة يقدرون العلماء ويجلونهم ويستفتونهم في كل صغيرة وكبيرة، ويأتمرون بأمرهم. بل كان للعلماء والفقهاء عندهم مكانة خاصة وشفاعة وحرمة فمن احتمى بدار الخطيب أو القاضي أو أي عالم أمن من عقاب السلطان والحكام ولم يتعرض له أحد بسوء(٦٣).

واستمرت دولة سنغاي الإسلامية في السودان الغربي في رعاية العلم وأهله العلماء والطلاب، واهتمت بنسخ الكتب العلمية ونشر الثقافة الإسلامية في السودان كله حتى غزاها الاستعمار المراكشي سنة ٩٩٩ هـ ـ ١٥٩١م، فاضطهد

العلماء والفقهاء وقتل بعضهم واعتقل بعضهم وشردهم وأتلف المكتبات العامة والخاصة في تمبكت وغيرها من مراكز العلم والثقافة في السودان(٦٤). وسيأتي الكلام على مساوئ الحكم المغربي للسودان وما أصاب البلاد أثناء حكم المغاربة من التفكك والانحلال والخمول الفكري وتدهور المراكز الثقافية بحضارتها وظهور البدع والخرافات في تلك البلاد.

مراكز الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي

مراكز الازدهار الثقافي والعلمي والحضاري في أفريقيا الغربية في عهد الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث غانة ومالي وسنغاي. هي مراكز الاستقرار السكاني، وأما المناطق الصحراوية فيندر وجود السكان فيها على وجه الاستقرار الدائم ولا يرتادها إلا الرعاة من الطوارق والسودانيين انتجاعا للمرعى لحيواناتهم ولا يقيمون فيها إلا لمدة محدودة أو أيام قليلة ثم يرتحلون عنها، فكانت المراكز الحضارية هي التي ازدهرت فيها الحياة العلمية وأنشئت فيها المدارس والجامعات حتى أصبحت إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العالم الإسلامي واستقطبت الكثيرين من علماء العالم الإسلامي في ذلك الوقت وطلاب العلم والمعرفة(٦٥). وقد قامت في السودان الغربي مراكز ثقافية مهمة بعد استقرار الإسلام في تلك المنطقة ومن أشهرها:

مدينة غاو ومساجدها ومدينة تمبكت وجامعاتها العلمية التي حظى التعليم فيها بعناية كبيرة من ملوك السودان، ومكانة مرموقة في المجتمع السوداني، ومدينة جنى. ومن المساجد التي قامت بدور تعليمي بارز في نشر الثقافة الإسلامية في أيام ازدهار الإمبراطوريات الإسلامية في غربي أفريقيا: مساجد دولة غانة البالغة اثني عشر في المدينة الإسلامية التي ذكرها البكري(٦٦)، يرتادها

العلماء والفقهاء وطلبة العلم. ومساجد مدينة أودغست الإسلامية التي كانت مركزًا ثقافيًا منذ وقت مبكر فقد كانت أقرب مدن السودان إلى المغرب حيث توجد مدينة أغمات ثم مدينة فاس التي كانت مركزًا للإشعاع الثقافي في المغرب والسودان.

وتحدث البكري عن مدينة أودغست وقال: (وهي مدينة كبيرة آهلة... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن(٦٧). وذكر: أن عبد الله ابن ياسين إمام المرابطين عندما فتحها سنة ٤٤٦هـ وجد بها عالما من القيروان،.. وأن علماء هذه المدينة فاقوا في علمهم عبد الله بن ياسين فقيه المرابطين فاعترضوا عليه في فتاويه ومنهجه وطردوه وهدموا داره(٦٨).

ومن المساجد الشهيرة في مجال التعليم الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية:

مسجد هيب بكشنا وكان قد بنى على طراز مساجد سنغاي وجنى، والمساجد الجامعة بكانو ومدن الهوسا الأخرى. والمساجد الجامعة ببرنو. وقد خرجت هذه المساجد علماء أفذاذا أناروا الطريق أمام مواطني غرب أفريقيا وقاموا بدور كبير وهام في إرساء قواعد الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية في بلادهم(٦٩).

وسأكتفي بالحديث عن ثلاثة مراكز فقط من هذه المراكز الإسلامية وهي:

غاو وتمبكت وجنى للدور الذي قامت به هذه المراكز الثقافية الثلاثة في ازدهار العلم ونمو الثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله، ولما لهذه المدن الثلاثة من شهرة عظيمة في ميدان العلم وتوثيق العلاقات الثقافية بين السودان والعالم الإسلامي في المغرب والمشرق.

أولا: مدينة غاو عاصمة إمبراطورية سنغاي وقد سبقت مساجدها تمبكت في دورها التعليمي وإن كانت تمبكت قد فاقتها في هذا المجال كما سيأتي.

الحركة العلمية في مدينة غاو في عهد إمبراطورية مالي وسنغاي الإسلاميتين

انتشرت الثقافة الإسلامية في غاو، أو (كوكو) أو (جوجو)عاصمة سنغاي في وقت مبكر جدا لصلتها بمصر قبل الإسلام، فانتشرالإسلام فيها عن طريق القوافل التجارية التي كانت تربطها بمصر وشمال أفريقيا وبلاد المغرب نظرا لموقعها الجغرافي الممتاز بالنسبة للقوافل القادمة من مصر وليبيا وأفريقية(٧٠). وقد وفد عليها بعض العلماء الذين أخذوا ينشرون الإسلام وثقافته فيها في الصدر الأول من الإسلام واستمروا في نشر الإسلام بين الأهالي حتى أسلم على يد بعضهم ملك سنغاي في ذلك الوقت وهو زاكسي سنة ٤٠٠ هـ ـ ١٠٠٩م، ويقال له مسلم دم. معناه أسلم طوعا بلا إكراه(٧١). وتؤكد شواهد القبور التي عثر عليها في مدينة غاو رجال الآثار من شواهد رخامية لقبور ملوك سنغاي كتب على أحدها باللغة العربية الفصحى (هنا قبر الملك الذي أيد دين الله وأعزه، أبو عبد الله محمد رحمه الله، وتاريخ وفاته سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) وشاهد آخر رقم ١١ مستطيل من حجر الكوارتز لقبر كتب عليه: هذا قبر محمد ابن الجمعة رحمة الله عليه توفي يوم الجمعة السادس من شعبان ٤٩٦هـ/ ١٥مايو ١١٠٣م. وشاهد آخر رقم ١٤ من مدينة غاو من الحجر الأخضر والأصفر كتب عليه: كل من عليها فان، وكل نفس مقبوضة إلى بارئها. هذا قبر حواء بنت محمد رحمة الله عليها، توفيت ليلة الخميس الثاني عشر من رمضان ٥٣٤هـ/ مايو ١١٤٠م)(٧٢).

هذه الشواهد من القبور التي كتبت عليها باللغة العربية الفصحى، تؤكد لنا قوة الثقافة الإسلامية وازدهارها في تلك المدينة وانتشار الإسلام واللغة العربية فيها قبل زمن أصحاب هذه القبور بوقت مبكر جدا. كما أن الأسلوب الذي

كتبت به أسئلة محمد أسكيا الكبير الموجهة إلى الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي وما امتازت به تلك الأسئلة من الجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات والجمل المتناسقة يدل على أن الثقافة الإسلامية وصلت قمتها في القوة والازدهار والانتشار وأتت أكلها ناضجة في تلك المدينة. وكان ازدهار الحركة العلمية والثقافية النشطة في مدينة غاو خلال القرون الثلاثة: الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي إبان فترة حكم آل أسكيا مملكة سنغاي الإسلامية، وفي هذه القرون بلغ ازدهار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في السودان الغربي مرحلة النضج⁽٧٣⁾. وقد اتخذ العلماء والفقهاء المساجد التي بنيت في مدينة غاو مدارس لتدريس القرآن الكريم وحفظه وتدريس سائر العلوم، ويفقهون الناس في دينهم. وعندما كانت مملكة سنغاي خاضعة لامبراطورية مالي اهتم ملوكها بنشر الثقافة الإسلامية في مدينة غاو بصفة خاصة، فقد أمر السلطان منسى موسى المهندس الأندلسي أبا إسحاق الساحلي الذي قدم معه من مكة أثناء حجه عام ٧٢٤ هـ ببناء مسجد جامع بمدينة غاو فبنى له مسجدًا جامعًا عام ٧٢٥ هـ صار جامعة إسلامية يؤمها العلماء والطلاب من كل مكان⁽٧٤⁾.

وكان من أشهر علماء مدينة غاو عاصمة سنغاي الذين قاموا بدور بارز في نمو الحركة العلمية والثقافية وظهر أثرهم جليًا في الدعوة والإصلاح في مدارس غاو وجامعاتها الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي⁽٧٥⁾، وقد تحدثنا حركته العلمية في موضع آخر. وأبو المحاسن محمود بن عمر وقد تقدم ترجمته فيمن رحل إلى المشرق من علماء التكرور ممن ذكرهم أحمد بابا في النيل. وسيأتي ذكره أيضا أنه من علماء تمبكت وقضاتها. وغيرهما من العلماء السودانيين والمغاربة.

وخلاصة الكلام أن مدينة غاو في أيام حكم آل أسكيا لمملكة سنغاي بلغت أقصى درجة من الازدهار في النشاط الثقافي والتجاري والصناعي لموقعها الجغرافي وقد وصفها ليون الأفريقي (الحسن الوزان) بالمدينة الكبيرة في حين

وصف تمبكت بالمدينة فقط. وقال عنها أيضا: (وهذه المدينة مطمئنة بالأمان أكثر من تمبكت)(٧٦). قلت: ولكن هناك فرقا بين غاو وتمبكت من ناحية أن غاو وهي عاصمة مملكة سنغاي المترامية الأطراف يسكنها التجار ورجال الدولة أكثر مما كان يوجد بها طلاب العلم والأساتذة. كما أن النشاط الصناعي فيها لم يزد على ما كان يوجد بمدينة تمبكت، وكانت القوافل التي تأتي من بلاد الهوسا والتي تأتي من جهة الشرق تقصد مدينة غاو، وأما القوافل التي تأتي تمبكت من جهة الشمال الغربي فإن كثيرًا من بضائعها ينقل إلى غاو في ذلك الوقت لكثرة ما بها من السكان والحركة التجارية. وقد قدر سكانها في عهد حكم آل أسكيا بخمسة وسبعين ألفا بينما سكان تمبكت في ذلك الوقت لم يزد على ثلاثين ألفا(٧٧). ومن هنا يبدو أن أهمية غاو في كثرة سكانها وحركتها التجارية وكونها عاصمة الإمبراطورية أكثر من كونها دار علم وثقافة. مع ذلك فإن الثقافة الإسلامية وصلت إلى مستوىً رفيع في مدينة غاو وأصبحت مركزا من المراكز الإسلامية المهمة التي شعت منها الثقافة الإسلامية واللغة العربية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين(٧٨). وفي هذين القرنين وقبلهما كان العلماء في حركة علمية دائبة بين غاو عاصمة مملكة سنغاي الواسعة ومدينة تمبكت مركز العلم والثقافة ومهجر العلماء والفقهاء. كما أن كثيرًا من علماء تلمسان وفاس وفجيج وسوس يقصدون مدن السودان ومن بينها غاو وتمبكت فيستوطنها بعضهم نهائيا ويقيم فيها آخرون سنوات عديدة قبل أن يرجعوا إلى مساقط رؤسهم. وقد وفد على غرب أفريقيا في ذلك العهد عدد كبير من العلماء والفقهاء من مختلف الأقطار الإسلامية للتدريس في مدارس غاو وتمبكت وجنى ومالي وغيرها من حواضر غرب أفريقيا إحساسًا منهم بواجبهم تجاه إخوانهم في

هـذه البلاد، وأسهم هـؤلاء العلماء في نشر الثقـافـة الإسلامية واللغة العربية فيها(٧٩).

مدينة تمبكت، أو تنبكت كما سماها أحمد بابا في النيل وكعت في الفتاش والسعدي في تاريخ السودان:

وقد درجت على كتابة اسمها بالصـورتين تمبكت وهي المشهورة الآن وتنبكت الاسم القديم في المراجع السودانية يعني اسم هذه المدينة (بئر بكتو)(٨٠)، ويقول السعدي: إن تنبكت اسم امـرأة كانت تحرس للطوارق تلك البئر. وقـد جاءت هذه التسمية مـن ذلك المكان الذي حفر فيـه البئر كان قد اتخذه الطـوارق مركزا للانتجـاع بمواشيهم في فصل الجفـاف بالسودان. وخـزانة لمتـاعهم إلى أن صار مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم، وقـد حفروا فيه بئرا وخازنهم أمتهم التي تدعى بتمبكت(٨١). ثم تكـاثـرت الآبار بعـد ذلك بـالتدريـج، وصار التجـار يتلاقون في ذلك المكان ويقيمون من حوله للراحة أحيانا.

وبسبب التقـاءاتهم في ذلك المكـان تحول إلى مـركز وسـوق تجاري ــ للتبـادل التجاري بين التجار الـذين يأتون من الشمال والذين يأتـون من الجنوب. ويقول السعـدي: (ثم أخذ النـاس يسكنـون فيه، ويـزداد بقـدرة الله تعالى وإرادتـه في العمارة، ويأتيه الناس من كل جهة ومكـان حتى صار سوقا للتجارة. . .)(٨٢)، بـذلك أصبحت مدينة تمبكت مركـزًا علميًا واقتصـاديًا ذائع الصيت بين مـدن السـودان بـرزت فيهـا دور العلم والعبـادة وشيـدت المسـاجـد والجوامع التي أصبحت جامعـات إسلاميـة ومعاهـد علمية تضم المتشوقين للعلـم من الطلبة

والعلماء الذين يفدون إليها من كل مكان من العالم الإسلامي. ووقفت هذه المدينة على قدم المساواة مع العواصم الإسلامية في المغرب ومصر والحجاز وبغداد والأندلس في مجال العلم والثقافة الإسلامية، وقامت بدور ثقافي بارز في السودان الغربي كله ولا سيما في عهد مملكة سنغاي العهد الذهبي لتمبكت. كانت زاخرة بالعلوم يؤمها الطلاب والعلماء والفقهاء من كل حدب وصوب من شمال أفريقيا والمغرب، ومن المشرق الإسلامي ومن السودان(٨٣).

وتحدث السعدي عن العلماء الأخيار والصالحين وذوي الأموال الذين وفدوا على تمبكت وسكنوها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مصر والحجاز وفاس والقيروان وبلاد المغرب وبين أن هؤلاء الأخيار من العلماء الذين سكنوا تمبكت اتخذوا مساجدها مدارس يحفظون الناس فيها القرآن الكريم ويفقهونهم في دينهم وينشرون الثقافة الإسلامية. . . (٨٤).

وبهذا كانت تمبكت مدينة أصبحت بحق مركز الثقافة الإسلامية في السودان الغربي وقلب الحركة الفكرية النابض اجتمع فيها الفقهاء والعلماء من كل جنس ولون. من السودانيين والمغاربة والأندلسيين والمصريين والحجازيين ووفد إليها طلاب العلم من كافة بقاع غرب أفريقيا وشمال أفريقيا(٨٥). وقد أعطى الحسن الوزان صورة علمية رائعة عن تمبكت أثناء مروره بها في عهد محمد أسكيا وبين ما فيها من العلماء والقضاة والأئمة والأدباء وما يحظون به من الإكرام والإجلال من قبل ملوك سنغاي وما يغدقه الملك محمد أسكيا من الأموال والرواتب الكبيرة على العلماء والأدباء والقضاة والأئمة كما ذكر المخطوطات والكتب التي تباع في مكتباتها بأسعار خيالية وأنه يجني من وراء ذلك أرباح تفوق كل سلعة تباع في أسواقها(٨٦).

الحركة العلمية والثقافية في تمبكت في عهد الحكومات التي تعاقبت على حكمها

تعاقبت على حكم تمبكت عدة دول إسلامية، لأنها لم تنشأ إلا بعد دخول الإسلام في المنطقة بمدة طويلة واستقراره فيها، وكانت أولى الحكومات التي حكمتها هي امبراطورية مالي الإسلامية بعد استيلائها على مملكة سنغاي وضمها إلى مالي. وأول من ملك تمبكت من ملوك مالي منسى موسى أو كنكن موسى بعد أن استولى على غاو عاصمة سنغاي بعد عودته من الحج . . . (٨٧) ويظهر أنها كانت قبل ذلك تابعة لمملكة سنغاي، فلذلك لما ضمت امبراطورية مالي الإسلامية مملكة سنغاي إليها أصبحت مدينة تمبكت تابعة لها. وتحدث السعدي عن تعاقب الدول والسلاطين على حكمها وعن تطور البناء والعمارة فيها وبين أنه ما تكامل البناء فيها في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في فترة حكم أسكيا داود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد، ثم تحدث عن أول من ابتدأ الملك فيها.

فقال: (فأول من ابتدأ فيه (٨٨) الملك كما تقدم أهل ملى ودولتهم فيه مائة عام وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن الثامن، ثم طوارق مغشرن ودولتهم أربعون عاما وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن التاسع (٨٩) (وذكر السعدي في ص ٩ أن طوارق مغشرن هؤلاء أغاروا على أهل تمبكت واستولوا عليهم في آخر دولة مالي، وأنهم أخذوا يفسدون في الأرض من كل جهة ومكان. . .) ثم سن على وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين في القرن التاسع ومدة ملكه أربع وعشرون سنة.

ثم أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد ودولته مع عقبه مائة عام وواحد. وتاريخه رابع عشر من جمادى الآخرة في العام الثامن والتسعين في القرن التاسع وآخرها

سابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. ثم الشريف الهاشمي أحمد الذهبي (ملك مراكش) وتاريخه انقراض دولة أهل سنغاي وهو السابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. وكان ملكه فيه اليوم خمس وستين سنة)(٩٠).

وتتفق جميع المصادر التي تحدثت عن تمبكت في عهد الحكومات التي تعاقبت عليها؛ أن الحركة العلمية والثقافية فيها نشطت نشاطًا بعيد المدى واشتهرت بمساجدها التي تحولت إلى جامعات علمية راقية لا تقل عن مثيلاتها في القاهرة وغيرها في عهد امبراطورية مالي الإسلامية وامبراطورية سنغاي الإسلامية. أما في عهد ملوك مالي فقد شهدت مدينة تمبكت حركة علمية نشطة وازدهرت الثقافة الإسلامية العربية فيها.

وفي عهد منسى موسى شهدت تمبكت نشاطًا علميًا منقطع النظير وازدهرت فيها الثقافة الإسلامية العربية. وبنى فيها المسجد الجامع الكبير سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م ووسع مسجد سنكرى(٩١) الذي غدا جامعة إسلامية راقية تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في السودان والعالم.

وقد كانت تمبكت تضم ثلاثة مساجد هامة: المسجد الجامع الكبير ومسجد سنكرى ومسجد سيدي يحيى، وهذه المساجد الثلاثة أصبحت بمثابة جامعات ومعاهد تعليمية كبرى ومراكز ثقافية وتربوية. وحققت هذه المساجد أهدافها التعليمية والثقافية والتربوية وتخرج منها القضاة والعلماء والأدباء والمؤرخون أمثال أسرة كعت والقاضي العاقب، وعلماء وفقهاء أسرة آل أقيت، والمؤرخ السعدي صاحب تاريخ السودان، وأحمد بابا صاحب نيل الابتهاج وغيره والقاضي محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش. وغيرهم كثيرون. وقد قام السلطان منسى موسى بجهود مباركة في النهوض بالتعليم في تمبكت وجامعاتها ورفع مستوى الثقافة

الإسلامية فيها، فاستقدم لها العلماء من كل مكان من الحجاز ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، كما أتبع ذلك بالبعثات العلمية إلى المراكز العلمية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت واشترى لمكتباتها المراجع والمصادر والمخطوطات في المذهب المالكي بصفة خاصة وأغدق على علمائها وطلابها ورعاهم حتى غدت المساجد والمدارس جميعها غاصة بطلبة العلم والعلماء الوافدين إليها من كل فج عميق، فازدهرت الثقافة الإسلامية وسائر العلوم فيها، واشتهرت مدينة تمبكت عالميا وخاصة في مجال بيع المخطوطات، وأصبحت حاضرة ثقافية لها صلة بغيرها من العواصم الثقافية الأخرى في المغرب والعالم العربي مثل فاس في المغرب والقيروان في تونس، وقرطبة في الأندلس، والقاهرة في مصر (٩٢).

وفي عهد منسى موسى انتشر الإسلام في بلاد هوسا انتشارًا واسعًا وازدهرت الحركة العلمية والثقافية في بلاد كانو وكنشا بسبب الحركة التي قام بها علماء تمبكت وجنى. وفي أيامه أيضا دخل الإسلام في بلاد يوربا وانتشر فيها وصار يعرف الإسلام في بلاد يوربا بدين مالي حتى يومنا هذا(٩٣).

وكان قد وفد على بلاد هوسا ويوربا (نيجيريا حاليا) في عهد منسى موسى أو الذي كان قبله وفد من علماء مالي يضم أربعين رجلا من شعب المادنجو من ونغارة لنشر الإسلام في تلك البلاد، وعرضوا الإسلام على أمير كانو فأسلم وحسن إسلامه وأصدر أوامره إلى جميع القرى والمدن التابعة له بأن يعتنقوا الإسلام فاعتنقوه، وابتنى أول مسجد في كانو تحت شجرة كانوا يؤمنون بقداستها وأقيمت فيه الصلوات الخمس، وتولى الوفد المناصب الدينية في بلاد كانو كالقضاء والإمامة في الصلاة والأذان وذبح الماشية على الطريقة الإسلامية(٩٤).

ويذكر صاحب كتاب الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا أن الوفد الذي قدم من إمبراطورية مالي الإسلامية إلى كانو لدعوة أهل تلك البلاد إلى الإسلام يبلغ أفراده

ثلاثة آلاف وستمائة وستة وثلاثين شخصا ما بين عالم وقارئ(٩٥). وبنى كلامه هذا على المخطوطات التي عثر عليها في نيجيريا المتعلقة بعدد الونغاريين وأصلهم والذين وفدوا على بلاد هوسا لنشر الإسلام. وتذكر احدى المخطوطات بأن عددهم مائة وستون شخصا(٩٦). ومهما يكن الاختلاف حول عدد هؤلاء العلماء فإن المتفق عليه أن بعض علماء مالي في عهد منسى موسى قد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام ودخوله وترسيخه في بلاد هوسا. وأن هذه الحركة العلمية التي قاموا بها هي اللبنات الأولى لتبادل التعليم والثقافة الإسلامية بين جامعة تمبكت ومعاهدها وعلماء مدينة جنى في مالي وبلاد هوسا (نيجيريا حاليا) منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

ويبدو لي من هذا العرض أن الإسلام قديم في هذه البلاد ولكن وجوده كان سطحيا لم ينتشر ولم يعتنقه سلطان كانو وأمراء البلاد التابعة له إلا عند وصول هذا الوفد من امبراطورية مالي الإسلامية. وأن هؤلاء العلماء الونغاريين أحدثوا ثورة تصحيحية للمفاهيم الإسلامية في تلك البلاد وقضوا على الأوثان التي كانت تعبد فيها(٩٧).

وبعد وفاة منسى موسى هاجمت قبائل الموشى الوثنية مدينة تمبكت فدمرت كل مظاهر الحضارة فيها وأحرقت المساجد والمدارس والمكتبات(٩٨). وعملت فيها مثلما فعل التتار بمدينة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت وفي هذا العهد استطاع أمراء سنغاي أن يستقلوا وينفصلوا عن مالي(٩٩).

ولما تولى عرش مالي منسى سليمان بعد وفاة ابن أخيه عمل على إحياء مجد تمبكت الثقافي والعلمي كما كان عليه في عهد أخيه منسى موسى وبنى المساجد والجوامع وأقام الجمع والجماعات واستقدم العلماء والفقهاء في مذهب الإمام مالك وكان منسى سليمان نفسه متفقهًا في الدين معروفًا بالصلاح والتقوى(١٠٠).

وكان قد حج عام ١٣٥١م واشترى لمكتبات تمبكت التي دمرتها قبائل الموشى الوثنية كثيرا من الكتب في مذهب الإمام مالك فاستعادت تمبكت مكانتها الثقافية⁽١٠١⁾ . وفي عهد هذا الملك زار ابن بطوطة تمبكت وتجول في بلاد مالي وسنغاي .

الثقافة الإسلامية في تمبكت في عهد مملكة سنغاي

كان سنى علي الذي حكم سنغاي من عام ١٤٦٤ ــ ١٤٩٢م، من أعظم ملوك سنغاي قبل أسكيا محمد، وكان قويًا محاربًا شديد البطش بخصومه، ويذكر السعدي أن ملوك سنغاي لم يجاوز ملكهم سنغاي إلا في عهد سنى علي فإنه زاد على جميع من مضى قبله في القوة وكثرة الجند فعمل الغزوات وطوع البلاد وبلغ ذكره شرقا وغربا . . .⁽١٠٢⁾ وكان الطوارق قد استولوا على مدينة تمبكت في أواخر امبراطورية مالي الإسلامية بعد انفصال مملكة سنغاي عنها، ولكن سنى علي هاجمها واستولى عليها وضمها إلى امبراطورية سنغاي كما استولى على ما بقي من مملكة مالي .

ويذكر السعدي أن سنى علي هذا عندما استولى على تمبكت خربها وقتل العلماء وشردهم، ورحل كثير منهم مع سلطان الطوارق آكل إلى مدينة (بير) ويظهر مما كتبه السعدي وغيره من السودانيين عنه أن سبب قتله العلماء وتشريده إياهم يرجع إلى سببين هما :

١ ــ انضمام كثير من العلماء في تمبكت إلى جانب الطوارق وإلى سلطانهم عقيل الملاول كما يسميه صاحب كتاب سنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر⁽١٠٣⁾ . أو أكل أكملول⁽١٠٤⁾ الذي كان سني علي يحاربه آنذاك .

٢ ـ أن العلماء كانوا لا يكفون عن انتقاده حيث كان سني علي مسلمًا لم يحسن

إسلامه بحكم تربيته في بلد أمه في بلاد هوسا، ولم يهجر يوما العبادات التقليدية للسنغاي وفوق ذلك كان رمزا للثقافة السنغاوية التقليدية(١٠٥)، ومما يؤيد هذا أن السعدي نفسه ذكر أنه كان يكرم بعض العلماء ويحترمهم وقال: (وبعد رحيل الفقهاء إلى (بير) قلد القضاء - أي في تمبكت - الفقيه القاضي حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمي(١٠٦) وبالغ في تعظيم ابن عمه المأمون والد عمار بن المأمون حتى لايقول له إلا أبي، وبعد موته - أي سني علي - حين شرع الناس في ذكر مساوئه، يقول المأمون: (لا أقول في سني علي سوءا إلا أنه أحسن إلي ولم يعمل في سوءا كما عمله في الناس). لا يذكره بحسن ولا قبيح فعظم قدره عند أبي البركات الفقيه محمود بذلك لأجل عدالته...)(١٠٧) وأضاف السعدي قائلا: (ومع هذه الإساءة كلها التي يفعل بالعلماء يقر بفضلهم، ويقول: لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم...)(١٠٨) فلما اعتلى أسكيا محمد عرش سنغاي أعاد العلماء جميعا إلى تمبكت وأكرمهم ورعاهم وعمر المساجد والمدارس وأعاد بناء ما خربه سني علي(١٠٩) واشترى كثيرا من الكتب العلمية والثقافية واهتم بنشر العلوم والثقافة فازدهرت تمبكت في عهده ازدهارًا لم يسبق له مثيل ويعتبر عصره وعصر من بعده من أولاده العصر الذهبي لمدينة تمبكت وللعلم والعلماء. فقد وصفه القاضي محمود كعت بقوله: (ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل. وكان من عقلاء الناس ودهاتهم، والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته، وأبطل جميع ما عليه شيء من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء وأقام الدين أتم

قيام. . . وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة جازاه الله عن الإسلام خيرا، ونصب في تمبكت قاضيا وفي بلدة جني قاضيا وفي كل بلد يستحق القاضي من بلاده قاضيا من كنت إلى سبرك. . .)(١١٠) ويذكر صاحب الفتاش أنه كانت بمدينة تمبكت ـ في عهد أسكيا ـ مائة وخمسون أو ثمانون مكتبا لتعليم الصبيان القرآن الكريم. وتارة يسميها مدارس(١١١). ويعبر السعدي عن ذلك باسم (محضر) فيقول في معرض حديثه عن الفقيه أبي القاسم التواتي أحد علماء تمبكت وأحد أئمة مسجدها الجامع الكبير: وقد سكن في جوار المسجد الجامع من جهة القبلة ليس (بينه)(١١٢) وبين داره إلا الطريق الضيق النافذ بعدما ابتنى محضرا في قبالة المسجد لاصقا بها وفيها يقرأ الأطفال، وبعد ما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الغزالي وبعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي)(١١٣). وواضح من كلام السعدي أنه يعني بكلمة (محضر) مدرسة لتعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن الكريم أو يعني بها مكتب التعليم وتحفيظ القرآن. وكلمة (محضر بمعنى مدرسة تعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن، أو بمعنى الكتاب تسمية مشهورة في بلاد المغرب والمشرق الإسلامي(١١٤) في ذلك الوقت. وكانت مدينة تمبكت في عهد آل أسكيا وخصوصا في عهد أسكيا محمد وابنه أسكيا داود من أبرز مراكز الثقافة الإسلامية في السودان الغربي. وفي هذا العهد تكامل بناؤها في الالتصاق والالتئام بجوامعها ومعاهدها وكتاتيبها ومدارسها؛ كما يقول السعدي(١١٥). . . وتمتع العلماء في تمبكت وغيرها بمكانة مرموقة في المجتمع السوداني فقد درج ملوك وسلاطين سنغاي على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراما لا يمس بسوء طيلة

حياته(١١٦)، وكان لهذا الجو من الطمأنينة الذي وفره هؤلاء الحكام لعلماء تمبكت أكبر الأثر في تقدم العلوم وازدهار الثقافة الإسلامية في جامعة تمبكت. وظهرت المكتبات العامة التي أنشأها أسكيا داود في مدينة تمبكت، كان السلطان أسكيا داود فقيهًا عالمًا مهيبًا فصيحًا وهو أول من اتخذ خزائن الكتب وملأ تلك المكتبات بالكتب والمخطوطات. وكان له نساخ ينسخون له كتبا ومخطوطات ويهادي بها العلماء(١١٧).

وانتشرت المكتبات الخاصة التي اقتناها العلماء والأثرياء في تمبكت. وكانوا لا يبخلون على طلاب العلم بشيء منها(١١٨)، وقد ساعد عملهم هذا على ازدهار العلوم والثقافة في تمبكت بوجه خاص وسائر مدن السودان وقراها بشكل عام. كما أن استتباب الأمن في عهد أسكيا داود من جهة والرخاء والرعاية التي أولاها للعلماء وطلاب العلم من جهة أخرى كل ذلك ساعد العلماء على العطاء والإنتاج في مجال العلم وساعد أيضا الطلاب على الأخذ والقيام برحلات مستمرة في طلب العلم، كما زاد الحركة الفكرية والثقافية توقدا في تلك المدينة، وكانت الدراسة في جامعة سنكري العلمية والجامع الكبير تتركز أساسا على علوم القرآن والحديث وعلومه، والسير، والتاريخ والمنطق، وكان علماء الجامعتين يدرسون: الصحيحين وموطأ مالك في الحديث، والمدونة والرسالة ومختصر خليل، والشفا للقاضي عياض والمعيار للونشريسي، وتحفة الحكام لابن عاصم، ورجز المغيلي في المنطق، والألفية، والخزرجية في العروض وشرح الشريف السبتي. فإذا أتم الطالب دراسة هذه الكتب والعلوم المتنوعة حصل على الإجازة العلمية المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالإقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء. وكان الطلاب يفدون إلى مدينة تمبكت للدراسة في جامعة سنكرى وغيرها من كل مكان في أفريقيا الغربية والشمالية بعد أن

يكونوا قد حفظوا القرآن أو أجزاءًا منه في مدارسهم المحلية، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية في بلادهم شدوا الرحال إلى تمبكت وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم ودراستهم على الصورة المتقدمة وكانت حياتهم ميسرة، ويستضيفهم سراة الناس في المدينة وتجارها ووجهاؤها، كما أن مسجد سنكرى نفسه كانت له أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم(١١٩).

وأصبحت مدينة تمبكت مركزا لإشعاع فكري بعيد المدى في بلاد السودان واشتهرت عالميا ببيع الكتب والمخطوطات، فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامي ثم تنسخ وتباع في أسواقها، وتلقى إقبالا منقطع النظير من السلاطين والعلماء والطلبة، وكان العلماء يقبلون في شغف على إنشاء المكتبات الخاصة ومنهم من نيفت كتبه على الفين(١٢٠). وأصبح لها في بلاد السودان التأثير الثقافي والعلمي.

وكانت جامعة سنكري في هذا العهد قد تمتعت بسمعة كبيرة جدا وشهرة أساتذتها تجاوزت حدود السودان لتصل إلى مشارف شمال أفريقيا والمغرب وكذلك كان شيوخ المسجد الجامع الكبير ومسجد سيدي يحيى(١٢١) وكان هناك اتصال وثيق غير منقطع بين علماء جامعات ومعاهد تمبكت وجامعات المغرب الإسلامي بمراكش وتونس والجزائر وغيرها، وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تمبكت وغيرها من مدن السودان. كما كان علماء تمبكت كثيرا ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون أو يتعلمون(١٢٢).

يتبع هذا البحث: أشهر العلماء الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرن الثامن والتاسع والعاشر الهجري.

الهوامش

(١) هذه المعلومات عن نظام التعليم والتثقيف وتنمية القدرات وإعداد الطفل للمستقبل في أفريقيا الغربية قبل الإسلام حسب النظم القبلية: روايات متواترة بين الشيوخ والكهول والطبقة الواعية من الشباب في غرب أفريقيا وقد أدرك الكثير منهم هذا النظام من التعليم.

(٢) انظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٥٩ ـ ٦٠ الباب العاشر لأحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري ٧٠٠ ـ ٧٤٩ هـ تحقيق وتعليق د/ مصطفى أبو ضيف أحمد. وانظر المغرب ص ١٧٥ للبكري ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٧ د/ إبراهيم علي طرخان.

(٣) العبر ج ٦ ص ١١٠ لابن خلدون.

(٤) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ١٨١.

(٥) المرجع السابق ج ٦ ص ١١٠ وانظر التأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٢٢.

(٦) انظر الخطط لتقي الدين المقريزي ج ٢ ص ١٧١، ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٧) الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٣٣ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ٤٣ للدكتور / عبد الرحمن زكي.

(٨) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ هـ.

(٩) انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ٣٠٤ للحافظ ابن حجر العسقلاني.

(١٠) ابن حجر في أبناء الغمر بأنباء أبناء الغمر ج ١ ص ٥٨٢

(١١) انظر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٠٤.

(١٢) انظر الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ ـ ٣ للسخاوي.

(١٣) انظر إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور لمحمد بلو بن عثمان فودى ٥١ والجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا لأحمد محمد كاني ص ٤٤ ـ ٤٥ الطبعة الأولى .

(١٤) العبر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(١٥) تاريخ السودان ص ٥٧ .

(١٦) تاريخ السودان ص ٣٧، وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ٢٦ الطبعة الأولى وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٧٨ محمد مخلوف وذكر أحمد بابا أنه توفي سنة ٩٤٢هـ .

(١٧) ذكره السعدي في تاريخ السودان ص ٣٧ .

(١٨) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ على هامش الديباج وتاريخ السودان للسعدي ص ٣٨ ـ ٣٩، وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٧٥ .

(١٩) نيل الابتهاج ص ٣٤٤، وتاريخ السودان ص ٣٩، وفتح الشكور في علماء التكرور ص ١٤٦ .

(٢٠) تاريخ السودان ص ٣٩ ـ ٤٠ وانفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٥١ .

(٢١) تاريخ السودان ص ٤١ .

(٢٢) تاريخ السودان ص ٤٢ ـ ٤٣، وفتح الشكور ص ٢٩ ــ ٣٠، ونيل الابتهاج ص ٩٣ .

(٢٣) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ . . .

(٢٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٧١ ومسالك الأبصار ٤٩٢ ودولة مالي الإسلامية ص ١٨٩، وصبح الأعشى للقلقشندي ج٥ / ٢٨١ .

(٢٥) انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨١ نقلا عن مسالك الأبصار للعمري، والخطط ج ٢ ص ١٧١، ودولة مالي الإسلامية ١٨٩، والجهاد الإسلامي في غرب أفريقية للكاني ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢٦) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، لأحمد بن علي المقريزي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٥م ص ١١١ ــ ١١٢، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١١٢، وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥ وتاريخ السودان ص ٧ ـ ٨ .

(٢٧) تاريخ السودان ص ٧ ـ ٨، والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، ج ٢ ص ٢٠٠ طبعة بولاق بمصر عام ١٢٨٤هـ، وانظر دولة مالي الإسلامية ص ١٤٨ والاستقصاء في دول المغرب الأقصى للنصارى ص ١٠١.

(٢٨) مسالك الأبصار ص ٦٠ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٩.

(٢٩) تاريخ السودان ص ٥١ وفتح الشكور ص ١٧٦.

(٣٠) تاريخ السودان ص ٧ ـ ٨ وفتح الشكور ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣١) انظر مسالك الأبصار ص ٦٠ ـ ٦١ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦. ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٨ ـ ١٦٩ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٣٢) رحلة ابن بطوطة ص ٤٤٤ ـ ٤٥١ وانظر دولة مالي الإسلامية ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣٣) انظر تاريخ السودان ٧ ـ ٨ ورحلة ابن بطوطة ص ٤٥٠ ومسالك الأبصار ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٣٤) مسالك الأبصار ص ٥٩ ـ ٦٠ وفي صبح الأعشى (المنارات) بدلا من كلمة (المواذن).

(٣٥) انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٧.

(٣٦) رحلة ابن بطوطة ص ٤٥٠ المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

(٣٧) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٧٠ ـ ٧١. وانظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥.

(٣٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٤.

(٣٩) الرحلة ص ٤٥٢.

(٤٠) مسالك الأبصار ص ٧٤ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٨.

(٤١) انظر الفتاش ص ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ومملكة سنغاي في عهد الاسقيين ص ٩ ـ ١٢، وص ٤٠ ووصف أفريقيا ص ٥٣٩.

(٤٢) مملكة سنغاي ص ١٢ ـ ٤٠.

(٤٣) تاريخ الفتاش ص ٥٩، وتاريخ السودان ص ٧٢ ـ ٧٣، ونزهة الحادي بأخبار القرن الحادي ص ٨٩ ـ ٩٠ لمحمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي، ط مكتبة الطالب رباط مؤسسة الملك ـ الدار البيضاء.

(٤٤) الفتاش ص ٥٩ .

(٤٥) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ للقاضي محمود الذي كان مع السلطان محمد أسكيا أثناء حجه في العام المذكور وانظر تاريخ السودان للسعدي ص ٧٣ وقال السعدي : أنه اشترى جنانا في المدينة وحبسها على أهل التكرور، وهي معروفة هنالك .

(٤٦) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ٤٥ .

(٤٧) الفتاش ص ٩٤ .

(٤٨) انظر وصف أفريقيا ص ٥٤١ بتصرف .

(٤٩) انظر امبراطورية غانة الإسلامية ص ١٤٤ .

(٥٠) راجع لهذا الموضوع تاريخ السودان ص ٢١ ـ ٢٧ ـ ٤٣ ومملكة سنغاي ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

(٥١) تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٧٣ .

(٥٢) انظر نيل الابتهاج ص ٣٣١ ، وقد أوضحنا الحديث عن أثر دعوته الإصلاحية في السودان الغربي واتصاله بملوك السودان وحياته العلمية في تلك البلاد، فارجع إليه .

(٥٣) انظر الحكم المغربي للسودان الغربي ص ٥١٥ .

(٥٤) كشاف القناع للبهوتي ج ١ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٥٥) تاريخ السودان ص ٣٦ .

(٥٦) فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور ص ١٥٥ .

(٥٧) تاريخ السودان ص ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ وانظر أيضا بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥١٥ .

(٥٨) نيل الابتهاج ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٥٩) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٧ .

(٦٠) انظر مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٨ ، وبرنود فيلا ص ٥٩ ، ونيل الابتهاج ص ٧ وما بعدها تقدم الحديث على صبح بن عبد الله التكروري أنه من الذين رحلوا لطلب العلم في الأزهر.

(٦١) انظر تاريخ الفتاش ٩٤ ومملكة سنغاي ص ١٠٢ ـ ١٣٩ ووصف أفريقيا ص ٥٤١ ـ ٥٤٤ .

(٦٢) انظر المراجع السابقة والحكم المغربي للسودان ص ٥٥٢ .

(٦٣) انظر الفتاش ٥٩ ـ ٦١ وتاريخ السودان ٣٨ ـ ٤١ ورحلة ابن بطوطة ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ والتأثير الإسلامي في السودان ص ٢٧٨ .

(٦٤) انظر تاريخ الفتاش ص ١٧٤ ـ ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٨ ـ ١٣٩ والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ١٧٨ .

(٦٥) انظر تاريخ السودان ص ١٦ ـ ٢٠ وما بعدها ونيل الابتهاج لأحمد بابا .

(٦٦) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ١٧٥ .

(٦٧) المغرب ص ١٥٨ .

(٦٨) انظر المرجع السابق ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ ١٦٧ والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٧٩ وأودغست مدينة سوننكية في الأصل . انظر امبراطورية غانة الإسلامية ص ٤٣ .

(٦٩) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ١٥٤ . وايداع النسوخ فيمن أخذت من الشيوخ ص ١٣٥ مكتوب بخط اليد لعبد الله فودي مخطوط بكلية عبد الله بايرو في جامعة أحمد بيلو ـ رقم ١٣٥ ، والجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٢١ وما بعدها حتى ص ٣٣ . .

(٧٠) انظر دولة مالي الإسلامية ص ١٦٨ ـ ١٨٦ .
وانظر تاريخ السودان ص ٤ وموجز تاريخ أفريقية ص ٤٤ ـ ٤٥ تأليف ولاند أوليفر وجون فيج ، ترجمة د/ دولت أحمد صادق . ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٧١) انظر السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين ص ٢٠٠ بقلم سينيكي مودي سيسوكو.

(٧٢) كتاب السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر: م ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ وفيه صور القبور المذكورة بالخط العربي الذي كتب به أسماء أصحابها وطول الحجر وارتفاعه وانظر أيضا العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وامبراطورية سنغاي بغربي أفريقيا في القرن العاشر / السادس عشر الميلادي ص ٦٢٥ للنقيرة.

(٧٣) انظر مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٦ ـ ١٣٧ وما بعدها وانظر الأسئلة والأجوبة ص ١٨ ـ ١٩ .

(٧٤) تاريخ السودان ص ٧ .

(٧٥) نيل الابتهاج ص ٣٣١ .

(٧٦) وصف أفريقيا ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ . ومملكة سنغاي ص ١٠٨ .

(٧٧) مملكة سنغاي ص ١٠٩ .

(٧٨) انظر حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقية الغربية ص ١٥٧ للدكتور نعيم قداح .

(٧٩) انظر تاريخ السودان، والحركة الفكرية بالمغرب ص ٧٠ وانظر أيضا الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ص ١٤٨ لشوقي عطا الله الجمل .

(٨٠) ذكر السعدي أن طوارق مقشر أنشأوها في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي وهم قوم من البدو الرحل قدموا إلى هذه البلاد لرعي أغنامهم ثم استقروا في موضع هذه المدينة ص ٢٠/ ٢١ .

(٨١) انظر تاريخ السودان ص ٢٠ ـ ٢١ الباب السابع منه ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٠٠ .

(٨٢) تاريخ السودان ص ٢١ .

(٨٣) انظر لمعرفة ازدهار هذه المدينة ثقافياً وعلمياً واقتصادياً: تاريخ السودان ص ٢١ وما بعدها، وتاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ وذكر القاضي محمود كعت أن تمبكت في عهد مملكة سنغاي قبل غزو المغاربة لها: لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب. . . ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٨٤) انظر تاريخ السودان ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٨٥) انظر المرجع السابق. والإسلام والثقافة العربية في أفريقية ج١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ للدكتور / حسن أحمد محمود ج ١ ص ١٧٠ وانظر أيضا الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ص ١٥٤ د/ شوقي عطا الله الجمل .

(٨٦) وصف أفريقيا ص ٥٤١ .

(٨٧) تاريخ السودان ص ٠٧

(٨٨) الضمير في فيه يعود على البلد المتقدم في كلامه وليس إلى المدينة . انظر ص ٢٢ السطر الأول .

(٨٩) بين السعدي أن حكم الطوارق لم يكن مباشرا للبلد وإنما فوضوا أمر تمبكتو إلى كي محمد نض ، وبقوا على حالهم القديمة من سكنى البراري وتتبع المراعي . انظر السعدي ص ٢٢ ، ويلاحظ أن الطوارق إنما استولوا على تمبكت بعد تفكك امبراطورية مالي وانفصال مملكة سنغاي عنها ، وانشغال ملوك مالي بالاعتداء على ممتلكات مالي المتداعية . لذلك استعاد سن على ملك سنغاي تمبكت من الطوارق وضمها من جديد إلى مملكة سنغاي . انظر السعدي ص ٩ .

(٩٠) تاريخ السودان ص ٢٢ .

(٩١) تاريخ السودان ص ٨ وص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٩٢) انظر لما ذكر المراجع التالية : تاريخ السودان ص ٧ ـ ٨ وص ٥٦ ، وتاريخ الفتاش ص ١٨٠ ومع حركة الإسلام في أفريقية دراسة خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ص ١٥٧ ـ ١٥٨ / ١٥٩ للدكتور/ عبده بدوي . وانظر التأثير الإسلامي في السودان الغربي لمحمد النقيرة ص ٢٨٠ وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية ص ١٧٧ وما بعدها .

(٩٣) انظر الإسلام في نيجيريا ص ٢٤ و ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٩٤) انظر المصادر التالية : الثقافة العربية في نيجيريا د/ على أبو بكر ص ٣٨ ـ ٣٩ الطبعة الأولى عام ١٩٧٢م ، تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وما بعدها . وكتاب ملامح من الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣ .

(٩٥) الجهاد الاسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣ .

(٩٦) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وما بعدها .

(٩٧) انظر المراجع السابقة . ويلاحظ أن مملكة برنو أو كانم الإسلامية التي قامت في القرن الخامس الهجري كانت مجاورة لبلاد هوسا قد يكون لها أثر في وصول الإسلام إلى بعض بلاد هوسا ، ولكن تأثير الماليين أكثر وأعمق في نفوس أهل البلاد . والله أعلم .

(٩٨) انظر تاريخ السودان ص ٨ ـ ٩ ومملكة مالي الإسلامية ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٩٩) انظر المرجعين السابقين.

(١٠٠) مسالك الأبصار ص ٥٩ ـ ٦٠ ودولة مالي الإسلامية ص ٩٤ / ٩٥ وصبح الأعشى ص ٢٩٧.

(١٠١) المراجع السابقة والتأثير الإسلامي في غرب أفريقيا ١٨١.

(١٠٢) انظر تاريخ السودان ص ٦.

(١٠٣) السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، بقلم سينيكي مودي سيسوكو.

(١٠٤) تاريخ السودان ص ٩ وص ٢٢.

(١٠٥) السنغاي من القرن ١٢ إلى القرن ١٦ م ص ٢٠٤.

(١٠٦) عبد الرحمن التميمي هذا من العلماء الذين استقدمهم سلطان منسي موسى أثناء حجه من الحجاز إلى مالي لتعزيز معاهدها بالفقهاء والعلماء من خارج البلاد، وتقدم ذكره.

(١٠٧) تاريخ السودان ص ٦٦.

(١٠٨) المرجع السابق ص ٦٧ وهذا يؤكد أنه لم يكن يعادي العلماء كلهم في تمبكت وإنما كن عدوا للعلماء الذين وقفوا مع عدوه الذي كا ن يحاربه.

(١٠٩) يقول السعدي في تاريخ السودان فيما حكاه عن أحمد بابا: ؟أن مدينة تمبكت خربت ثلاث مرات الأولى على يد سلطان موشي، والثانية على يد سني علي، والثالثة على يد محمود بن زرقون. قائد الجيش الذي أرسله منصور الذهبي للاستيلاء على السودان ص ٩.

(١١٠) تاريخ الفتاش لقاضي محمود كعت أحد قضاة تمبكت ص ٥٩ ـ وتاريخ السودان ص ٧٢.

(١١١) المرجع السابق ص ١٨٠.

(١١٢) في الأصل ليس بينها وبين داره، والمير في (بينها) يعود إلى المسجد الجامع وهو مذكر وقد لاحظت أنه أحيانا يعيد الضمير الذي للمؤنث على المذكر.

(١١٣) تاريخ السودان ص ٥٨.

(١١٤) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد أفريقيا ص ١٦١ وذكر نقلا عن د/ عبد العزيز أمين ـ بأن هذه التسمية معروفة في المغرب وأن التلميذ في الخلوة يسمى

عندهم (المحضري) وأما في المشرق فقد نقل عن ابن جبير عندما تحدث عن مدينة دمشق قوله: (وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، ولها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم به وبكسوتهم.

(١١٥) انظر تاريخ السودان ص ٢١/ ٢٢ وص ١١٠ وتاريخ الفتاش ص ١٠٦ .

(١١٦) تارخي الفتاش ص ١٨ ـ ١٩ وص ٧٣ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ص ٢١٥ .

(١١٧) تاريخ الفتاش ص ٩٤ وذكر أن أسكيا داود كان حافظاً لكتاب الله بالإضافة إلى كونه متفقهاً في الدين.

(١١٨) انظر ذلك في ترجمة أحمد بن عمر بن محمد أقيت في تاريخ السودان ص ٤٢ وانظر أيضا نيل الابتهاج ترجمة محمد بن محمود الونكري التنبكتي ص ٣٤١ .

(١١٩) انظر تاريخ السعدي من صفحات ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٦٠ إلى ص ٦٣ وانظر أيضا الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ٢٧٢ للدكتور حسن أحمد محمود.

(١٢٠) انظر وصف أفريقيا لتجارة الكتب والمخطوطات في تمبكت ص ٥٤١ والمراجع السابقة.

(١٢١) مسجد سيدي يحيى قيل بناه محمد نض الذي كان حاكم تمبكت من قبل سلطان الطوارق آنذاك أكل في الفترة التي حكمها الطوارق أواخر مملكة مالي الإسلامية، ثم لما بنى محمد نض هذا المسجد عين صاحبه وحبيبه الفقيه العالم/ سيدي يحيى التادلسي المتوفى سنة ٨٦٦هـ إماماً له. ثم بنى هذا المسجد ووسع في عهد السلطان أسكيا داود سنة ٩٧٦ هـ على يد القاضي العاقب بن محمود أقيت. انظر تاريخ السودان ص ٢٢ ـ ٢٣ وكثيرا ما عرف هذا المسجد بجامع محمد نض. انظر نفس المرجع ص ٢١٥ ـ ٢٣٩ ـ ٢٥٦ وانظر لشهرة جامعة سنكرى وأساتذتها: العلاقات بين الثقافة العربية والثقافة الأفريقية ص ٦٧ المنظمة العربية للتربية والعلوم والفنون.

(١٢٢) السعدي الفصل العاشر من ص ٣٩ إلى ص ٦١ في كل هذه الصفحات تحدث عن العلماء ورحلاتهم وقيامهم بالتدريس في السودان والشمال والمغرب والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص ٧١ .